الفصل الرابع

قصة مصر

عصور الفترة الأولى والدولة الوسطى والإمبراطورية

اضطراب النظام الحكومى وبدء عصر الفترة الأولى[1]

انتهى عصر الأهرام وانهار صرح نظامه بعد أن ظل نحو ألف عام ، وكان لهذه الحوادث أثر كبير فى الشعب ، ولكنها لم تجد صدى فى نفوس الناس وقت حدوثها بحيث يسطرون وقائعها أولا بأول، غير أن بعض الذين شاهدوها لم يستطيعوا نسيانها فكتبوا عنها فيما بعد مثل ما حدث تماما عند سقوط روما . ففى مثل تلك الأيام السوداء ينصرف المفكرون عن الانشغال بالزخرف الخارجى ويحصرون تأملاتهم فى القيم الداخلية للنفس الإنسانية بعد أن يتضح لهم عبث الاعتماد على الماديات . فقد كان ملوك مصر فى عصر الأهرام يعتمدون على الماديات ، وقضوا قرونا عديدة يكافحون لينتصروا على الموت بإقامة أهرامهم العظيمة وعمل الاحتياطات الكبيرة لصيانة جثثهم، ولكن ها هم يرون الأهرام ومقابر وجهاء البلاد تحت رحمة الفوضى وكيف بدأت تتهدم . وكلما تقدمت الأيام وظل الناس فى فوضى اقتنع هؤلاء المفكرون أن لا فائدة من هذه الحياة المادية الفانية .

وبعد أن انتهى عصر الاتحاد الأول رأى الحكماء المصريون ما وصل اليه حال البلاد من الانهيار ، وحرك أشجانهم ما رأوه من انتهاك حرمة قبور اسلافهم وتركها

---

١ ـ فضلت تغيير (feudal age) أى العصر الاقطاعى الى عصر الفترة الاولى (first intermidiate period) والدولة الوسطى لان ذلك هو المستعمل الآن فى جميع كتب التاريخ الحديث . وعدل المؤرخون بالاجماع عن استعمال تعبير العصر الاقطاعى لانه لا سند له فى الوثائق القديمة ولم يكن فى مصر يوما من الايام نظام يشبه العصر الاقطاعى المعروف فى تاريخ اوربا (المعرب)

دون عناية، فأخذوا يتأملون فيما عساه أن يكون قد نفع هؤلاء الاسلاف ما اتخذوه من احتياطات وما أنفقوه على تلك المقابر وما أوقفوا عليها من أموال . نحن نعرف أن بعض الشكوك بدأت تفسح لنفسها مكاناً فى نفوس بعض الناس فى عصر الأهرام فأخذوا يتساءلون عن مدى فائدة تلك الاحتياطات المادية ومدى تأمينها لخلود النفس ، ولكن عندما يرى الناس هذه الآثار العظيمة وقد أصبحت خرائب ، فإن الشك يتحول إلى الحاد وانكار. ولم يمض وقت طويل حتى وجد هذا الالحاد طريقة إلى الكتابات الأدبية .

وظلت مصر ألف سنة يسودها نظام وطنى يمثله الملك ويحافظ عليه. ولكن فى الوقت الذى تداعى فيه هذا النظام وانهارت أركانه انكشفت مواطن الضعف للأجانب وبدأوا يغزونها ويتدفقون على الدلتا من ناحية الشرق آتين من آسيا ومن ناحية الغرب من ليبيا ، فعمت الفوضى ووقف دولاب العمل الحكومى ؛ ونقرأ فيما خلفه أحد الحكماء : «ورمى الناس ملفات القوانين والمحاكم على الأرض وداسوا عليها فى الأماكن العامة ، وأخذ عامة الناس يفتحونها فى وسط الطريق » ، ووقف التعامل الاقتصادى وتغيرت الأوضاع الاجتماعية تغيرا تاما ، وعفت الأيام على القيم الأخلاقية التى اعتبرها الناس مثلهم العليا ، تلك القيم التى وصلت اليها الإنسانية بعد الفى سنة تقريبا وجاءت نتيجة للحياة المنظمة، وظن القوم إنها خالدة. وكان هذا الانهيار الاجتماعى أقدم النكبات التى وصلت الينا أخبارها مدونة بعد أن كتبها بعض من عاشوا فى تلك الأيام ، وأدركوا تمام الادراك ما أصاب المجتمع من انهيار. وعرفوا العواقب الوخيمة التى يمكن أن تصيب البلاد من جراء الفوضى فى حكم البلاد ، وكانوا يحلمون بتغيير الحالة وتحسن الأيام . وكان بعضهم يؤمن بأن عصراً جديداً سيبدأ عندما يتولى الأمر جيل من الموظفين العادلين ذوى الأمانة ، بينما آمن البعض الآخر أن هذا العصر الجديد يمكن أن يجىء على يد ملك عادل ينقذ الناس

ويعيد تنظيم المجتمع . وكان الفريق الأول يرى أن علاج الحالة يمكن أن يتم بتطبيق العدل والمبادىء الاجتماعية السليمة فى الحياة اليومية على أيدى طبقة الموظفين ، ونرى هذا المعنى واضحا فيما كتبه ملك مجهول عاش فى ذلك العهد المظلم الذى جاء بعد سقوط عصر بناة الأهرام ضمن نصائحه لولده : « إن الرجل المستقيم الذى يقيم العدل خير من ثوره الذى يسبب الأذى » وها هو كاتب من الفريق الثانى ويدعى « نعزروهو » يصف ما آلت اليه حالة البلاد من سوء ويتنبأ بمجىء ملك يخلص الناس مما هم فيه ويسمى هذا الملك « أمينى » وهو اختصار لاسم امنمحات الذى لاشك أنه

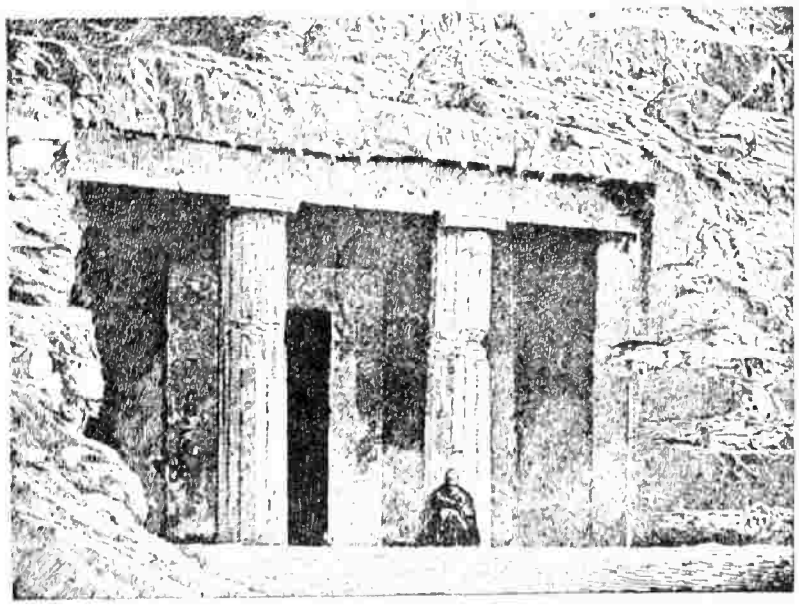

شكل : ٢٣ ــ مقبرة منحوتة فى الصخر لاحد الكبراء من عصر الدولة الوسطى

ليس هذا القبر مبنيا بالحجر مثل مقابر عصر الاهرام وانما هو منحوت فى صخر الجبل . وفى داخل الهيكل الذى يوصل اليه الباب الظاهر فى الصورة مناظر ملونة تشبه مناظر مقابر عصر الاهرام كما نجد هناك أيضا كثيرا من الكتابات . ويقص علينا صاحب هذا القبر كيف كان يحسن معاملة الناس . فيكتب على أحد جدران مقبرته « لم أسىء الى فتاة من بنات الفقراء . ولم أظلم أرملة . ولم يحدث أننى طردت فلاحا أو أخرجت راعيا من عمله . لم يكن هناك بائس فى رعاياى ولم يجع أحد فى عهدى . ولما حلت سنوات القحط حرثت جميع الحقول فلم يبق جائع بين الناس وأعطيت الارملة مثل ما أعطيت المرأة ذات البعل . ولم أميز غنيا على فقير فى أى شىء منحته »

هو « امنمحات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشر الذى نظم حالة مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . والذى قيل عنه بعد ثلاثة أجيال من وفاته إنه « طرد الظلم بعيداً لأنه أحب العدل كثيرا » .

ورأى المتنبئون أن حلمهم قد تحقق عندما تولى امنمحات الأول عرش البلاد . ولكن ما الذى حدث للفريق الأول الذى كان لا يرى أملا فى انقاذ البلاد إلا على أيدى أجيال من الموظفين الصالحين ؟ فى الواقع أن كلا الأمرين مرتبطان لأن حكم الملك الصالح لا يمكن أن يكون مثمرا إلا إذا قام على اكتاف موظفين صالحين ينفذون سياسته . وبذل امنمحات « الصالح » كل ما وسعه من جهد ليعيد المثل العليا القديمة ولكنه لم يتمكن من أخضاع أمراء الأقاليم إخضاعا تاما إذ ظل لهم الكثير من حقوقهم القديمة واستقلالهم ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الاقطاعيين فى العصور الوسطى بأوربا ، وهـــذا هو مادعا بعض الكتاب لتسمية هذا العصر فى بعض الأحيان بعصر الاقطاع فى مصر .

الأدب والعلم فى عصر
الفترة الأولى والدولة الوسطى

كانت هذه الفترة فى تاريخ مصر من العصور الزاخرة بالآثار الادبية التى وصل الينا منها قطع كانت فى يوم من الأيام ضمن مكتبات أمراء الأقاليم . فقد عنى هؤلاء الناس بجمع الكتب ، وكانت على هيئة ملفات من البردى تلف بعناية وتختم ثم توضع داخل أوانى من الفخار وتصف على رفوف المكتبات . ولو تسنى لأحد أن يمسك بيده بعض هذه الأوانى ويفتحها ويفحص ما فيها، فإنه لا يرى فيها فقط ما يثبت فوضى المجتمع وآلام الفقراء والضعفاء ولكنه يرى بينها أيضا أقدم كتب القصص فى تاريخ العالم ، مثل قصة أسفار ومغامرات « سنوحى » فهى قصة مصرى فى آسيا شبيهة بمغامرات « أوديسيوس » فى الادب اليونانى ، أو قصة البحار الغريق الذى غرقت سفينته عند باب ذلك المحيط المجهول الذى يبدأ بعد نهاية البحر الأحمر. وفى هذه القصة قصة مغامرات بطل من أبطال البحر نرى فيها صورة سالفة لقصة «السندباد البحرى». ومن بين تلك الكتب أيضاً قصص عجائب قام بها حكماء وسحرة فى أعمال تشبه ما قام به النبى « موسى » ورجال فرعون بعد ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

ولو أننا قارنا تطور الحضارة فى عصر الفترة الأولى بما كان عليه الحال فى عصر الأهرام لوجدنا كثيرا من التغييرات الأساسية ، فقد كان من مميزات عصر بناة الأهرام الازدهار المعجز الجبار فى البناء وفى الفنون ، كما امتاز أيضاً بجعل الأخلاق أساسا يقوم عليه صرح الحياة الإنسانية ، فلما جاء عصر الفترة الأولى حاول المفكرون الاجتماعيون أن يقيموا فوق الاساس القديم بناء آخر ؛ فرأوا أن الضمير لا يُصْلِح الأخلاق فحسب، بل أنه قادر على أن يجعل من الأخلاق قوة اجتماعية ، وكان لهذا التقدم فى التفكير أثر كبير على الديانة . لقد نظر الناس إلى آلهتهم فى

عصر الفترة الأولى على أنهم أكثر من حاكمين مسيطرين على دنيا الطبيعة ومسيرين للشمس والقمر أو الأرض والماء . وبدأ المصريون فى ذلك العهد يعتقدون أن آلهتهم كانوا أيضا كائنات عليا فى دولة فيها حق وفيها باطل، وأن كل إنسان كان مسئولا أمامهم عن تصرفاته ، وأن روح كل إنسان ستسأل فى الحياة الأخرى عما فعلته فى الحياة الدنيا .

وهنا نرى للمرة الأولى فى حياة هذا الإنسان أنه بدأ يترك الصراع مع القوى الطبيعية والمادية ، وأخذ يرتفع بنفسه ويتقدم نحو مثل خلقية عالية ، وكان هذا التقدم أهم وأعظم ما وصل اليه الإنسان فى حياته ؛ وكان الأساس الذى مهد لأشياء أساسية فى حضارته مثل معرفته استعمال النار أو استخدام المعادن .

ومن بين هذه الآثار الأدبية قصة « أوزيريس » التى سطرت على الأرجح فى عدة ملفات ، وكانت مسرحية دينية صوروا فيها حياة « أوزيريس » ثم موته وبعد ذلك دفنه ثم بعثه . وكانت هذه المسرحية تمثل أثناء عيد يقام كل سنة . وكان الناس يقبلون عليها اقبالا كبيراً ويقومون بدور فيها ، وهذه المسرحية هى أقدم ما عرفه العالم عن التمثيل الدينى ، وكان تمثيلها يستغرق بضعة أيام .

ومما كشفت عنه حفائر الآثار قطع من بردية كتبت فيها مسرحية من النوع الذى يحتاج أداؤه إلى تسيير المواكب ، ونجد فيها اجزاء من أحاديث بين شخصين وفيها توجيهات المخرج وفيها بعض المناظر ، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر قبل الميلاد ، ويمكننا أن نقول عنها أنها ربما كانت أقدم كتاب مصور فى العالم .

ومن بين ما وصل إلينا من هذه البرديات ، ملفات تحوى أغنيات وقصائد شعرية مثل ذلك النشيد الجميل الذى كان يغنيه رجال البلاط يحيون به الملك فى كل صباح ، وكان هناك نشيد آخر فى مدح الملك يغنيه فريقان يرد أحدهما على الآخر

فى أيام الاحتفالات الكبرى فى البلاط ، وهذا النشيد مكتوب فى سطور متماثلة تشبه مثيلاتها فى المزامير عندما كتبت باللغة العبرية ، وهى أقدم ما وصل إلينا من أنواع الشعر .

ومما يدعو إلى الدهشة أن كثيرا من هذه القراطيس البردية التى كتبها المصريون فى ذلك العهد البعيد بينها بعض ملفات فى مبادىء العلوم ، وأهم هذه البرديات ، بردية « إدوين سميث » « Edwin Smith Papyrus » وهى نسخة نقلها كاتب فى القرن السابع عشر قبل الميلاد عن نسخة أقدم منها ، وهى بلا نزاع أقدم مؤلف صحيح، لأننا نقرأ فيه لأول مرة كيف يحاول العقل الانسانى أن يميز الحقائق ويسجلها ثم يستخلص منها النتائج على ضوء الحقائق التى لاحظها ، فهى دراسة عن الجراحة وعن الطب الظاهرى تبدأ من أعلى الرأس ثم تتناول الجسم جزءاً جزءاً ، ولكن لسوء الحظ لم تصل الينا هذه البردية كاملة . وينتهى الجزء الذى لدينا عند الحالات التى تتناول الصدر وأعلى السلسلة الفقريه . وللمرة الأولى فى تاريخ العالم نقرأ بعض الملاحظات عن مخ الإنسان ، بل أن كلمة « مخ » تظهر فى هذه البردية لأول مرة فى مخطوط .وتمكن ذلك الجراح المصرى الذى ألف هذه الوثيقة من معرفة أن المخ هو الذى يتحكم فى أعصاب الأعضاء المختلفة ، وأوضح لنا نوعا من التحقيق العلمى عن وظيفة المخ لم يصل اليه الباحثون إلا منذ عهد قريب . واكتشف ذلك الطبيب أيضا أن القلب هو القوة المحركة للنظام فى الجسم ، وهو فى الوقت ذاته مركز هذا النظام ، ولكن هذا الاكتشاف لا يعنى أن ذلك الطبيب عرف أسرار الدورة الدموية . ومما يدهشنا أيضا أنه ورد للمرة الأولى فى مؤلفات الطب ذكر الخياطة الجراحية فى تلك البردية .

وهناك ملفات فيها قواعد الحساب قائمة على الأساس العشرى الذى مازلنا نستعمله فى حياتنا إلى الآن . فيها مبادىء الجبر والهندسة ، ونحن لا نملك أنفسنا من الاعجاب

عندما نقرأ فى أمثال تلك البرديات الشيء الكثيرعن هندسة المسطحات، ونرى كيف عرف هؤلاء الرياضيون الأوائل قواعد لحساب مساحة الثلث على وجه دقيق أو المربع المنحرف أو الدائرة التى حسبوها على أنها تربيع ثمانية أتساع القطر ، وعرفوا أيضا قيمة النسبة التقريبية (ط — ٢٢) وهى فى حسابهم ٣ر١٦٠٥ ، وهى نتيجة قريبة إلى حد مدهش من قيمتها الصحيحة . فإذا ما وصلنا إلى هندسة المجسمات نرى فى تلك البرديات الرياضية طرق حساب عدد كيلات الحبوب التى توضع فى صومعات غلال اسطوانية تختلف ارتفاعاتها وأحجامها، وشرحوا أيضا كيف يحسب الإنسان كتلة هرم مربع الأضلاع ، علما بأن طريقة حل هذه المسألة لم تعرفها أوربا إلا بعد ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام ، وكان الناس قد نسوا طريقة قدماء المصريين حتى ظهرت أخيراً ترجمة إحدى البرديات فكشفت عنها .

وتمكن المصريون أيضا من عمل أرصاد للأجرام السماوية بآلات بسيطة ، ولكن هذه المدونات لم تصل إلى أيدينا مثلها فى ذلك مثل المدونات الجغرافية. ومع هذا فإننا نعرف أنهم عرفوا كيف يميزون بين الكواكب وبين النجوم الثوابت ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة نظام سير الكواكب فى السماء ،وليست أشكال الأبراج الاثنى عشر فى الدائرة الفلكية مصرية الأصل .

حكام مصر فى عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

يرجع الفضل فى تقدم الآداب والعلوم فى عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى إلى الحياة الرغدة المتنوعة التى عاشها الناس فى ذلك الحين، كما يرجع الفضل فيما احرزته البلاد من تقدم اقتصادى إلى أسرة الملك امنمحات التى قامت بأعمال رفعت كثيراً من مقدرة مصر فى الإنتاج إلى حد لم تعرفه من قبل. فقد أقام ملوك هذه الأسرة جسوراً عظيمة وبنوا خزانات كبيرة ليملأوها بمياه النيل ثم يستعملوها بعد ذلك فى شئون الرى، ولذلك زاد دخل الأراضى وعم الرخاء.

واهتم هؤلاء الملوك بتسجيل ما وصل إليه النيل فى فيضانه من ارتفاع، ونقشوا علامات تدل على ذلك المستوى من عام إلى عام على الصخور فى منطقة الشلال الثانى. أى أن المصريين كانوا يفعلون قبل أربعة آلاف سنة مالم تفكر حكوماتنا المتعاقبة فى عمله إلا منذ وقت قريب عندما قامت هذه الحكومات بعمل مشاريع للرى لاستصلاح الأراضى غير المنزرعة.

وأظهر ملوك ذلك العهد همة وقوة فى تنظيم الحكومة لأن ذلك كان ضرورياً للحد من سلطة حكام الأقاليم وإخضاعهم لنفوذ الملوك.

وأعدوا كشوف التعداد للمساعدة فى جباية الضرائب. وقد أبقت الأيام على بعض هذه الكشوف فوصلت سالمة إلى أيدى علماء الآثار، وكان من بين أعمال الملوك فى عهد الدولة الوسطى أنهم بدأوا تنظيم جيش صغير دائم. وربما كانت هذه هى المرة الأولى لوجود جنود محترفين فى تاريخ مصر. وكان على هؤلاء الجنود حراسة القصر والحصون التى أنشأها الملوك من بلاد النوبة حتى حدود مصر الآسيوية.

ولعب هذا الجيش دوراً هاماً فى الحروب . وكان الملك يعتمد أيضاً على الجنود الذين يرسلهم له حكام الأقاليم ليكونوا تحت تصرفه عند إرساله الحملات للقيام بأعمال حربية سواء فى الشمال أو فى الجنوب . فقد أغرم أمنمحات الأول ومن خلفه من الملوك بإرسال مثل هذه الحملات الحربية . وكان من نتيجتها أن وصلت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثانى ، أى أنهم أضافوا أكثر من ثلاثمائة كيلو متراً من نهر النيل إلى بلادهم ، وبنوا كثيراً من الحصون الحربية فى تلك المنطقة لحماية البلاد من خطر القبائل النوبية ، وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون القوية ، وكثيراً ما بعث هؤلاء الملوك بغزوات إلى سوريا وفلسطين ، وإن كان هناك شك فى أن الآسيويين الذين كانوا يعيشون فى مدن الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط لم يخضعوا للحكم المصرى ، فإنه من المؤكد أن هذه البلاد كانت داخلة فى دائرة نفوذ مصر ، ويدل على ذلك وجود أسماء ملوك هذه الأسرة مرات كثيرة على الآثار التى ظهرت فى الحفائر فى البلاد المختلفة الواقعة على هذا الشاطىء .

وبذل ملوك ذلك العهد مجهوداً كبيراً لإنماء ثروة البلاد ، فحفروا قناة بدأت عند الطريق الشمالى للبحر الأحمر متجهة غرباً إلى أن وصلت إلى أقرب فرع من فروع النيل فى شرق الدلتا ، وبذلك تيسر للسفن المصرية فى البحر الأبيض المتوسط أن تدخل هذا الفرع الشرقى من فروع النيل فى الدلتا إلى أن تصل إلى تلك القناة ثم تسير فيها متجهة نحو الشرق حتى تدخل البحر الأحمر ، وبعبارة أخرى فإن هذه القناة وصلت البحرين الأحمر والأبيض قبل أن تظهر قناة السويس إلى عالم الوجود بأربعة آلاف سنة .

وكان وصل هذين البحرين وإنشاء تلك القناة هاماً لمصر مثل أهمية قناة پناما للولايات المتحدة الأمريكية ، ومكن الأسطول المصرى القديم من أن يسافر إلى بلاد بعيدة ، فكان يصل إلى جزر بحر إيجه وإلى سوريا فى الشمال وإلى بلاد

الصومال ومدخل المحيط الهندى فى الجنوب حيث كانت تلك السفن تذهب إلى بلاد پونت . وتراءت تلك البلاد النائية للبحارة المصريين كأنها آخر أطراف الأرض ، وكانت قصصهم التى شحنوها بأخبار مخاطراتهم مبعث عجب من كانوا يستمعون إليهم بعد عودتهم .

ومهد حكم عائلة امنمحات لمصر أن تتبوأ مكان الصدارة فى العالم القديم ، ولكن لم يمض على عام ١٨٠٠ ق . م إلا وقت قصير حتى تضاءل نفوذ الملوك فجأة وجاءت النهاية المحزنة على يد غزاة أجانب . هؤلاء الغزاة هم الهكسوس الذين جاءوا من آسيا فاحتلوا مصر وقضوا على استقلالها .

تأسيس الإمبراطورية

استمرت سيادة الهكسوس فى مصر مايقرب من مائة سنة . ومن المحتمل أن بعض الأمراء المصريين كانوا يحكمون أقاليمهم فى بعض الجهات ولكنهم كانوا دون شك خاضعين لملوك الهكسوس . وفى أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ثار أمير طيبة على هؤلاء الأجانب وانتهى الأمر بإخراجهم من البلاد . وأعاد قاهر الهكسوس تنظيم الحكومة وجعل طيبة عاصمة الملك ، فى المكان الذى تقوم فيه الآن مدينة الأقصر ، ولهذا فإن الباحث عن تاريخ الإمبراطورية المصرية يحصل على مايريده عند دراسته لما بقى من آثار ذلك العهد المجيد هناك فى تاريخ مصر [١] .

وآثار الأقصر غنية جداً بنقوشها وما على جدرانهـــا من مناظر مرسومة ، وأمامها فى الناحية الغربية من النيل مئات المقابر نحتت فى جوانب الصخر ودفن فيها ذوو النفوذ ممن عاشوا فى عصر الامبراطورية وتركوا على جدران هياكلها فصولا كاملة لتاريخ البلاد وحضارتها ، وعلى جدران المعابد الفخمة فى الناحيتين

---

١ ــ يقسم المؤلف تاريخ مصر الى ثلاثة عصور اولها عصر الاهرام وفى رأيه الاصلى انه يبدأ من القرن الثلاثين ق.م. حتى القرن الخامس والعشرين وثانيها العصر الاقطاعى ويصـل الى أوج ازدهاره حوالى ٢٠٠٠ ق.م. وثالثهـا عصر الامبراطورية من ١٥٨٠ ــ ١١٥٠ ق.م. ولكن الغالبيـة العظمى من علماء الآثار تفضل أن تبدأ عصر بناة الاهرام ــ أى الاسرة الثالثـة فى القرن الثامن والعشرين قبل الميـلاد وتقسم التاريخ المصرى الى ست عصور وهى :

١ ــ العصر العتيق (الاسرتين الاولى والثانية)
٢ ــ ثم الدولة القديمة
٣ ــ عصر الفترة الاولى
٤ ــ الدولة الوسطى (وتبدأ حوالى سنة ٢١٠٠ ق.م. بالاسرة الحادية عشر)
٥ ــ عصر الفترة الثانية
٦ ــ وأخيرا الدولة الحديثة من الاسرة الثامنة عشر حتى نهاية الاسرة العشرين

اما باقى الاسرات أى من الواحدة والعشرين حتى نهاية الاسرة الثلاثين فانها تسمى بأسماء أخرى .
(المعرب)

الشرقية والغربية من النيل نرى المناظر التى تمثل مواكب المجد فى ذلك العصر ، ونرى فيها مناظر المعارك الحربية التى خاض غمارها ملوك مصر المحاربون ، وبستلفت أنظارنا فيها الملوك وقد رسموا بحجم كبير يقودون عرباتهم الحربية وقد تفرق أعداؤها مذعورين أمام جوادى عربته . وكان الجواد جديداً على مصر ولم يره أحد ممن عاشوا فى عصر الأهرام أو فى الدولة الوسطى، ولكن بعد انتهاء تلك الفترة بدأ المصريون يستوردون الخيل من غرب آسيا حيث عرفها الناس هناك قبل ذلك الوقت بنحو خمسمائة عام على الأقل . وعرف المصريون أيضاً العربات وعندما أتقن أهلها فنون الحرب على نطاق واسع بعد طردهم للهكسوس ، بدأوا عهداً جديداً فى تاريخهم فسيروا الجيوش وكونوا أمبراطورية كبيرة .

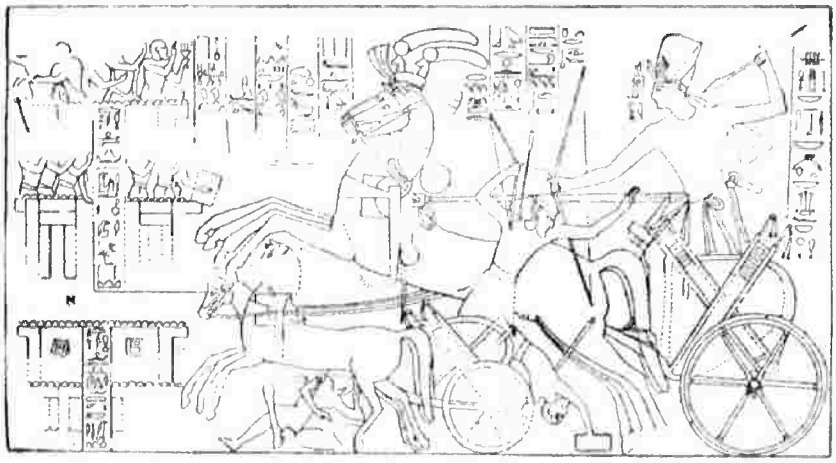

شكل : ٣٤ ـ أحد ملوك الامبراطورية فوق عربته الحربية

الملك رمسيس الثانى بعد انتصاره على الاسيويين الذين كانوا فى الحصنين اللذين على يسار الصورة . وكان الاسيويون يطلقون لجاهم كما نراهم فى الصورة . واذا فحصنا رسم الملك نراه قد ربط أعنة الخيل فى وسطه لتبقى يديه طليقتين وقد أمسك باحدى يديه زعيما اسيويا كان يركب عربته ورفع حربته القصيرة فى يده اليمنى ليطعنه . وهذا الرسم جزء من سلسلة مناظر طولها نحو ٥٢ مترا مرسومة على الحائط الخارجي للبهو الكبير فى معبد الكرنك ـ وكانت هذه المناظر منقوشة على الحجر وملونة بألوان زاهية أعطت للبناء روعة وجمالا وكان لها فى الوقت نفسه الاثر المطلوب فى نفوس من يراها من الشعب ، فيعرفون بطولة ملكهم . ولم يبق للون أثر فى أكثر هذه المناظر كما تأثرت الرسوم نفسها وتهشمت أجزاء كثيرة منها

وأصبح الفراعنة قواداً لجيوشهم التى أحسنوا تنظيمها وخاصة فرق الرماة بالقوس والسهم وفرق العربات ، ولازمهم النصر فكونوا أمبراطورية امتدت من شاطىء الفرات فى آسيا إلى الشلال الرابع فى أفريقيا .

وكانت الأمم فى العصور القديمة تبدأ فى جميع المدن والأمارات الصغيرة لتكون منها مملكة واحدة توحد إدارتها ، ولكن التطور الجديد فى حياة البشرية جعل هذه الشعوب المختلفة تتجمع فى امبراطورية واحدة ضمت جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى القديم ، وظلت هذه الامبراطورية من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد أى أكثر من أربعمائة سنة .

وكان معبد الكرنك أعظم مبانى طيبة وقد زاد فى مبانيه الملوك الذين حكموا فى الأسرات المختلفة حتى أصبح سجلا جامعاً تقرأ فيه تطور الامبراطورية فى تاريخها وفنها ودينها . ويرى الزائر بهو الأعمدة الكبير ويرى خلفه مسلة عظيمة من حجر الجرانيت من قطعة واحدة ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً أقامتها الملكة حتشبسوت أول امرأة عظيمة فى تاريخ العالم ، وكانت هذه المسلة واحدة من اثنتين أحضرهما معماريو هذه الملكة من صخور الشلال الأول ، وكان قطعهما ونقلهما ووضعهما فى مكانهما عملا مجيداً . لم تكن الملكة حتشبسوت محبة للحرب ، ولم تخرج على رأس الجيش ، ولكنها وجهت عنايتها لإقامة المبانى العظيمة وتوسيع نطاق التجارة الخارجية . فان هذه الملكة كانت فى حاجة إلى بعض أشياء كمالية لمعابدها ومقبرتها فأرسلت حمله إلى بلاد بونت [١] سجلت مناظرها على أحد جدران معبدها الفخم الذى ينتهى فى الناحية الغربية من النيل حيث عثرت بعثة متحف المترو بوليتان فى نيويورك عندما كانت قائمة بحفائرها لتنظيف هذا المعبد على كثير من بقايا رسومها

---

١ ـ لم تكن بلاد بونت قاصرة على الشاطىء الافريقى أى فى مكان بلاد الصومال فقط بل كانت تطلق على الشاطىء الاسيوى أيضا وكانت بلاد بونت تشمل المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب فى ناحيتيه أى الصومال وجنوبى الجزيرة العربية . (المعرب)

وتماثيلها على طول الطريق الموصل إلى الهيكل ، كما عثرت أيضاً على معالم البرك التى كانت فى الصالة السفلى فى المعبد ، ولكن هذه الأشياء التى ساعدتنا على فهم تاريخ تلك الملكة ومعرفة أعمالها أتتنا رغما عن معاصريها الذين أرادوا محو ذكراها من الوجود ، ولكن الأحجار الصامتة فى معبد الكرنك لم تلزم صمتها إلى الأبد بل حدثتنا عن كثير من الأسرار وكشفت لنا نقوشها التى أرادوا اخفاءها عن كثير من أعمالها لأن أعداءها أقاموا مبنى حول قاعدة هذه المسلة ليخفوا نقوشها عن الناس . أراد تحوتمس الثالث بعد أن تولى العرش أن يمحو تلك الذكرى التى كان يكرهها فشن على آثارها حرباً وأصدر أمره إلى العمال ليذهبوا إلى معبدها فى غرب طيبة ليحطموا أكثر من مائة تمثال لتلك الملكة أقامتها فيه لتجميله كما حطموا أيضاً إسمها أينما عثروا عليه وحطموا أسماء جميع من عاونوها من الرجال ومن بينهم

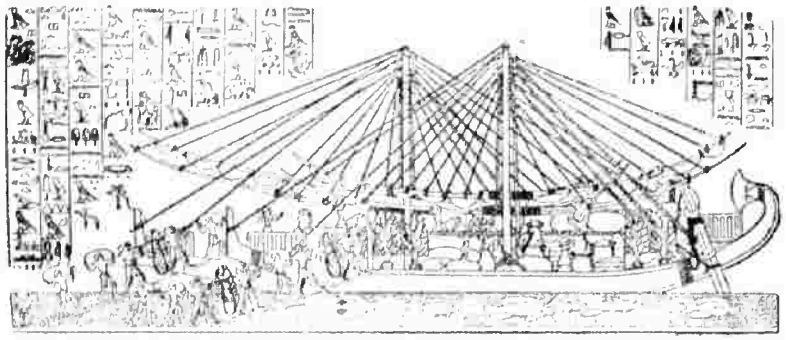

شكل : ٣٥ ـ جزء من أسطول الملكه حتشبسوت فى بلاد بونت

كان أسطول الملكة حتشبسوت الى بلاد بونت مكونا من خمس مراكب نرى فى هذا الرسم اثنين منها وقد رسا الاسطوال على الشاطىء وطويت القلوع وأخذ الملاحون بعد أن مدوا « السقالات » يحملون البضائع لشحنها وأخذ بعض هؤلاء الملاحين يعاكس قردا جلس على ظهر المركب . وتتحدث النقوش قائله « تم تحميل المراكب بجميع الاشياء الجميلة فى بلاد بونت والاخشاب العطرية من أرض الاله (أى بلاد العرب) وأكوام من البخور الجاف ، وأشجار البخور ، وكذلك الابنوس والعاج وذهب بلاد « امو » الاخضر ، وخشب القرفة ، وخشب الخسيت ، ونوعين من أنواع البخور ، والكحل ، والقرود والنسانيس والكلاب وجلود الفهد الجنوبى وكذلك بعض الاهالى وأطفالهم . ولم يحدث أن جىء الى ملك من الملوك بمثل هذه الاشياء منذ بدء الخليقة » . وهذا المنظر منقوش على أحد جدران معبد هذه الملكة فى طيبة .

ذلك المهندس الذى أقام مسلتى الكرنك ، ولكن الجدران التى بناها رجال تحوتمس الثالث حول قاعدتى المسلتين تهدمتا الآن وأصبح فى استطاعتنا أن نقرأ النقش المسطر عليها وعرفنا منه الكثير عن أعمال حتشبسوت .

وإذا رأى بعض الناس فيما فعله الملك تحوتمس الثالث أمرا كان يحسن تجنبه فان ذلك لا يؤثر قليلا أو كثيراً فى الحقيقة المعروفة وهى أنه أول قائد حربى عظيم فى التاريخ وأنه أعظم ملوك مصر المحاربين . ولهذا نسميه نابليون مصر . حكم أكثر من خمسين عاما منذ حوالى عام ١٥٠٠ ق. م - عام ١٤٤٧ ق. م. ونقرأ على أحد جدران معبد الكرنك أخبار حروبه فى مدى عشرين عاما حطم خلالها مدنا وممالك فى غرب آسيا ثم كون منها أمبراطورية ثابتة الأركان . وبنى تحوتمس الثالث أول أسطول حربى كبير مكنه من بسط نفوذه على بحر إيجة .

وجاء بعده ملوك فاتحون آخرون ولم تبدأ قوتهم فى الانحلال إلا بعد مضى قرن من الزمان على وفاته .

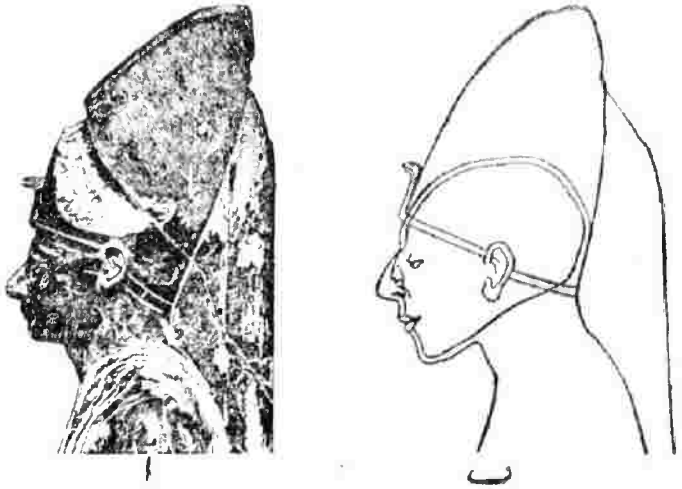

شكل : ٣٦ ـ تمثال للملك تحوتمس الثالث نابليون مصر ومقارنته بموميائه

نرى فى أ تمثالا من الجرانيت لذلك الفاتح العظيم ويمكننا أن نقارن ملامح وجهه بموميائه . ونرى فى الخطوط الجانبية للاثنين فى ب أن التشابه تام وأن الفنان المصرى القديم أجاد فى النحت اجادة تامة فى ذلك العصر

حياة الرفاهية فى أيام الأمبراطورية

تدفقت الأموال على مصر آتية من آسيا ومن بلاد النوبة فساعدت هذه الثروة على وجود عهد يمتاز بالفخامة والقوة لم تعرف الدنيا له شبيها من قبل ، ووضح أثر هذا العهد وبخاصة فيما تركه من مبان فخمة رحبة . فنرى مثلا فى معبد الكرنك القاعة الكبرى المعروفة باسم بهو الأعمدة ، فهى أعظم ما أقامه الانسان ، وارتفاع الأعمدة التى فى الجزء الأوسط منه ٦٩ قدما ويستطيع مائة شخص أن يقفوا مجتمعين فوق تاج أى عامود منها . وتطورت نوافذ الضوء بعد أن كانت فتحات ضيقة فى عصر الأهرام فقد أصبحت الآن نوافذ مرتفعة جميلة الشكل ، نرى فيها الأصل الذى أخذ عنه مهندسو الكنائس من طراز البازيليكا فيما بعد .

وكانت معابد طيبة فى أيام الإمبراطورية معابد فخمة تحيط بها حقول ملأى بأشجار النخيل ، وقامت أمامها المسلات وتماثيل الفراعنة ، وكان كل شىء دقيق الصنع ملوناً بألوان زاهية جذابة وكانت بعض الأجزاء من هذه المبانى مغطاة بصفائح من الذهب أو الفضة تذهل الأبصار بضيائها وتنعكس صورتها فى مياه بحيرة المعبد، فإذا ما دلف الزائر إلى داخلها وجد نفسه فى ردهة متسعة تضيئها الشمس وتحيط بجوانبها البواكى المقامة فوق الأعمدة، ولكن هذا الزائر العادى لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك . إنه يلقى ببصره إلى الأمام فيرى أبهاء أخرى ولكن تلك المبانى كانت بالنسبة إليه مليئة بالأسرار .

وكانت هناك معابد مختلفة توصل بينها طرقات طويلة صفت على جوانبها تماثيل من الحجر من الطراز المعروف باسم « أبو الهول » وكانت هذه المبانى

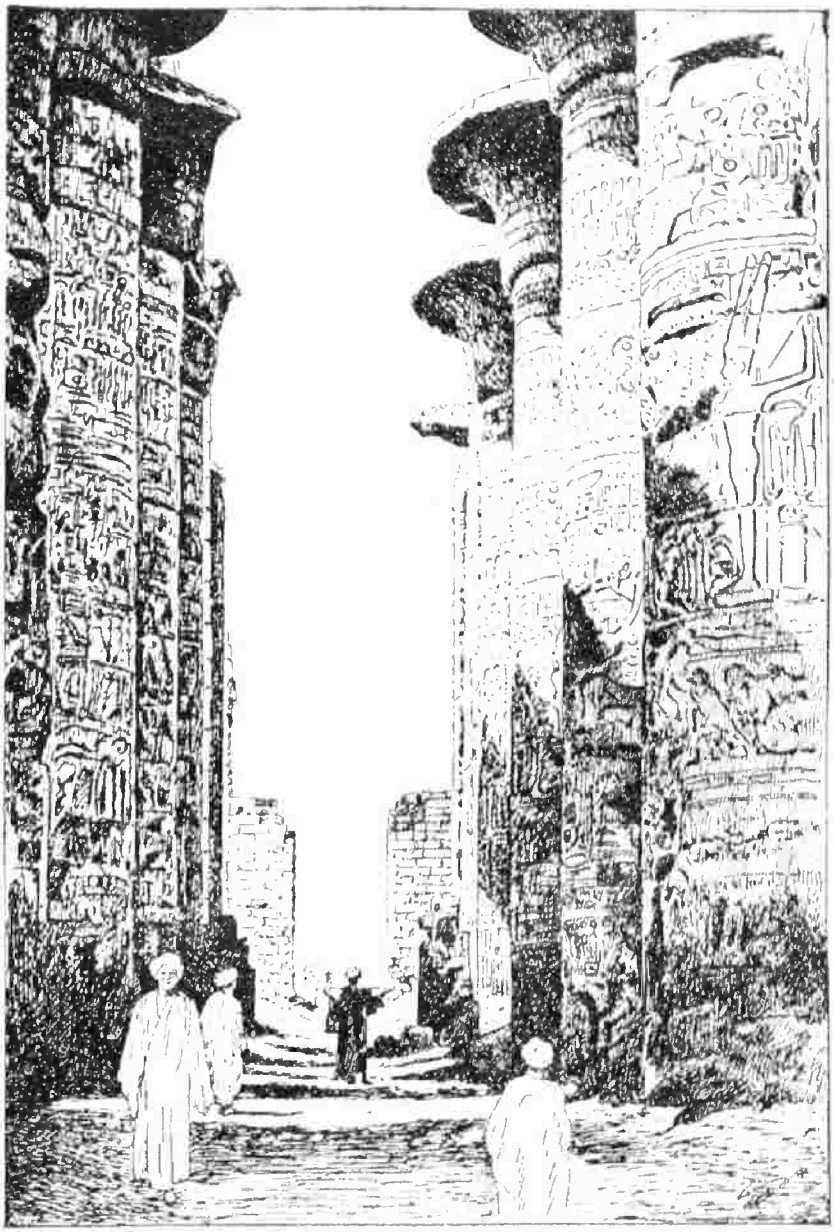

شكل : ٣٧ – الاعمدة الضخمة فى الجزء الاوسط من القاعة فى معبد الكرنك

وطرقاتها مجموعة عظيمة جعلت من طيبة مدينة تعد من أعظم مدن[١] العالم القديم . وكسبت لها صيتاً بعيداً بأنها أعظم المدن وأكبرها ، أعظم المدن التى بناها الإنسان وكانت مقامة على نظام متجانس جعلها كلها كأنها مبنى واحد فخم واسع الأرجاء .

ويعود الفضل الأكبر فى تقدم العمارة المصرية إلى كل من المثال والرسام فقد لونوا الأعمدة ذات التيجان الزهرية بألوان تماثل ألوان النباتات الأصلية ، كما لون الرسامون مناظر الحرب بألوان زاهية براقة ، وقامت تماثيل الملوك أمام المعابد ، وكان بعضها عظيم الحجم إلى درجة تفوق ارتفاع صرح المعبد نفسه ، وكان يراها الناس من مسافة أميال ، وكان فى مقدرة المثالين أن يصنعوا مثل هذه التماثيل الضخمة من قطعة واحدة من الحجر بالرغم من أن ارتفاعها ثمانون أو تسعون قدما ووصل وزن بعضها إلى ألف طن . وفى محاجر أسوان مسلة لم ينته العمل منها وتركت ملقاة فى مكانها ، يبلغ ارتفاعها مائة وسبعة وثلاثين قدماً ، ولو قدر لها أن تستخرج من مكانها لبلغ وزنها أكثر من ١١٠٠ طن . وقد استطاع مهندسو العصر الإمبراطورى نقل كثير من أمثال هـذه الأحمال الثقيلة إلى مسافة تبعد مئات الأميال من أماكنها دون أى قوة غير القوة الإنسانية . ونرى فى أمثال هذه الأعمال ما أحرزه قدماء المصريين من التفوق العظيم وفاقوا بذلك غيرهم من الشعوب .

ويقوم فى طيبة على الشاطىء الغربى للنيل تمثالان كبيران للملك أمنحوتب الثالث أعظم الأباطرة المصريين حباً للترف والفخامة ، ونرى خلفهما الجبل الذى نحتوا فى جوانبه مئات الهياكل لمقابر ذوى الأهمية من رجال الإمبراطورية .

وهنا يرقد كبار القواد الذين رافقوا الملوك فى حروبهم فى آسيا وفى بلاد النوبة . وهنا دفنوا أيضاً المهندسين المعماريين والفنانين الموهوبين الذين أقاموا المبانى التى أشرنا إليها وجعلوا من طيبة أفخم المدن فى العالم القديم .

---

١ ـ عرفت اوربا فى تخطيط المدن وتنظيمها على انها وحدة متجانسة متوازنة ولكن ذلك لم ينتشر فى أمريكا بعد ، ولم يبدأ فيها هذا النوع الا من عهد قريب .

وعلى جدران هذه المقابر نقرأ أسماء هؤلاء العظماء . وفى بعض الأحيان نقرأ أيضاً كثيراً مما حدث لهم فى حياتهم . فمثلا نقرأ فى إحدى المقابر قصة أحد القواد الذى أنقذ حياة الملك تحوتمس الثالث أثناء صيده للفيلة فى آسيا . فقد أسرع هذا القائد فى اللحظة المناسبة فضرب بسيفه خرطوم فيل هائج كان يطارد الملك .

وكان هنا فى طيبة قبر القائد الذى استولى على مدينة يافا فى فلسطين وذلك باخفاء جنوده فى غرائر وضعها على ظهور الحمير وأدخلهـــا إلى المدينة كبضائع للتجارة ، وهى إحدى المخاطرات التى كونت فيما بعـد جزءاً من قصـة « على بابا والأربعون لصاً » .

ولم يعثر الأثريون على مقبرة هذا القائد بعد ، ولـكن طبقاً ذهبياً يحمل اسم هـذا القائد يوجد الآن فى متحف اللوفر بباريس . ومن المرجح أنه كان فى تلك المقبرة ، لأن مقابر المصريين الذين عاشوا فى تلك الأيام كانت تملأ بالـكثير من

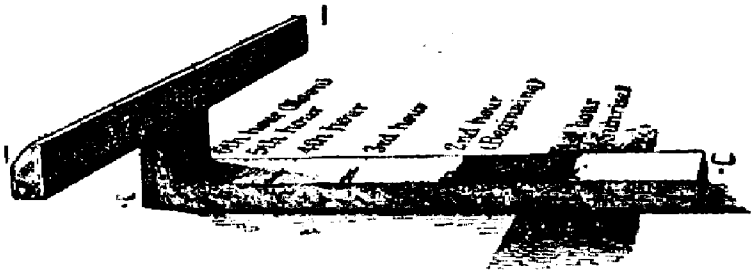

شكل : ٣٨ ــ أقدم الساعات فى العالم ــ مزولة مصرية

ساعدت شمس مصر الصافية على جعل المزولة آلة سهلة الاستعمال ففى الصباح كانوا يدعون القائم (ا ــ ا) فى ناحية الشرق يسقط ظله على القاعدة (ب ــ ب) فى المكان الذى ترى فيه علامة الساعة الاولى ــ وكلما ارتفعت الشمس كلما أصبح الظل أقصر ، ونرى بعد ذلك علامات الساعة الثانية حتى الساعة السادسة فيكون الوقت قد أصبح ظهراً ، وعند ذلك تدار هذه الآلة لتصبح ناحية القائم (ا ــ ا) ناحية الغرب حتى يقاس ظل شمس بعد الظهر بالطريقة عينها وقد أخذت أوربا عن المصريين تقسيم اليوم الى اثنى عشر ساعة

وتحمل هذه الساعة الشمسية اسم الملك تحوتمس الثالث أى أنها صنعت منذ ثلاثة الاف وأربعمائة سنة . وبعد عهو تحوتمس الثالث بما يقرب من ألف سنـة اقتبس اليونانيون هذا النوع من الساعات . والساعة المنشورة فى الشكل أعلاه توجد فى متحف برلين ، وقد رمم الاثرى بورخارت قائمها العلوى (ا ــ ا)

أدوات المنزل يضعها أقارب الميت الغنى بعد وفاته ، فنجد فى هذه المقابر الأثاث المنزلى والملابس والطعام الذى يحتاج اليه فى العالم الآخر ،حتى الآلة التى كان يستعملها فى قياس الوقت لم ينسوا أن يضعوها معه .

أما الملوك فكانوا يعدون أنفسهم بكل ما يساعدهم على أن يحيوا حياة رغدة مترفة بعد الموت ، وأفخم ما وجدناه من الأثاث الجنازى فى مقابر الملوك هو محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر . وتمدنا مقابر الأمبراطورية بأشياء أكثر من تلك الأدوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة . فاننا إذا درسنا النقوش والنصوص التى تغطى جدران مقابر جبانة طيبة نرى التقدم الكبير الذى أحرزه قدماء المصريين فى الآراء الدينية بعد عصر الأهرام. فكان كل واحد من أصحاب القبور يتوقع أن يلاقى حسابه فى العالم الآخر حيث كان أوزيريس هو القاضى الأعظم والملك بين هؤلاء الموتى . وكان كل ميت يستطيع أن يحيا مرة ثانية ، ويقوم من الموت كما فعل أوزيريس ، ولكنه كان مجبراً ـ قبل أن يحصل على ذلك ـ أن يقف بين يدى أوزيريس لتوزن روحه فيوضع قلبه فى أحد كفتى ميزان ويوضع فى الكفة الأخرى رمز الحق والعدل على شكل ريشة .

وكان أصدقاء الميت وأهله يضعون فى التابوت الذى يحوى جثته ملفا من البردى يحوى أوعية وتعاويذ سحرية كان من المفروض أن تعينه فى حياته التى سيحياها بعد الموت ، ونحن نطلق الآن على أمثال تلك الملفات « كتاب الموتى » وكان هذا « الكتاب » فى أكثر الحالات حاوياً لمناظر تمثل بعض ما سيراه أو سيلاقيه الميت فى الحياة الأخرى. ومن أهم تلك المناظر صورة المحاكمة فى قاعة الحق أمام الإله أوزيريس .

وجاء اليوم الذى تولى الملك امنحوتب الرابع عرش مصر بعد أبيه الملك

امنحوتب الثالث ، وكان قد مضى على تأسيس الامبراطورية نحو مائتى سنة اتصلت فيها مصر بغيرها من البلاد واكتسبت خبرة من حكم مناطق كثيرة تقع فى قارتين على شاطىء برزخ السويس . وهى منطقة أكبر بمراحل متعددة من وادى النيل الذى كانوا يعيشون فيه .

كانت الامبراطورية هى السبب الذى جعل ملوك مصر يجدون أنفسهم وسط معترك دولى ، وظل آلهة مصر يشدون أزر الملوك أينما امتد نفوذ مصر كما فعلوا من قبل ، وهكذا تدرج المصريون إلى الإيمان بأن إله الشمس « رع » مد نفوذه أيضاً على مصير البشر فى خارج حدود مصر ، أى أنه أصبح إلهاً دولياً وليس إلهاً مصرياً فقط .

ولم يفكر أحد فى ذلك العهد فى أن العالم وحدة أو أن لهذا العالم كله إله واحد يسيطر عليه . ونضجت فكرة الصلة الدولية فى مصر حوالى ١٤٠٠ ق . م . وسرعان ما نمت معها فكرة وحدة العالم . والمرة الأولى فى تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان امبراطورى ، وتلك هى أقدم صورة فى التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق .

وهنا بزغ فجر جديد فى تاريخ العـــالم عندما استطاع سكان وادى النيل أن يدركوا أنهم جزء من عالم كبير لا يمكن للانسان أن يلم بأطرافه وظهر بينهم أيضاً التوحيد قرونا عديدة قبل أن يظهر فى أى قطر آخر .

وفى مثل ذلك الوقت الحرج تولى الملك امنحوتب الرابع عرش البلاد حوالى عام ١٣٧٥ ق. م. وكان شاباً كثير التفكير ، شجاعاً لا يخاف ، ولكنه لم يراع الحكمة فى إصراره على إجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة . حاول أن يحطم آلهة مصر القدماء ، وحاول أن يغرى الناس بعبادة إله واحد فقط وهو إله الشمس ، فكان هذا العمل من جانبه حادثاً جديداً لامثيل له فى التاريخ البشرى ،

وأصدر أمره إلى جميع شعب الإمبراطورية بما فيها آسيا وإفريقيا ليعبدوا إلها واحداً سماه « أتون » وأغلق المعابد وطرد الكهنة ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم وأمر بمحو أسماء هؤلاء الآلهة أينما وجدوا وبخاصة فى نقوش المعابد ، وكره الشرك فأمر أيضاً بتكسير علامة الجمع أينما وردت فى أى نص بذكر جمع كلمة « إله » وكانت كراهته شديدة بنوع خاص للإله « أمون » (١) إله طيبة فى عصر الإمبراطورية .

ووصلت به كراهيته لأمون إلى حد تغيير اسمه لأن كلمة الإله مذكورة فيه فإن معنى اسم امنحتب هو « أمون راض » فغير اسمه إلى « اخناتون » ومعناها « المفيد لأتون » .

وأخيراً ترك اخناتون مدينة طيبة الفخمة بما فيها من معابد وقصور وبنى له عاصمة جديدة فى مصر الوسطى سماها « مشرق أتون » ومكانها الآن بلدة تل العمارنه ولم يستمر الناس فى سكنى تلك المدينة بعد وفاة اخناتون فهجروها بعد سنين قليلة وما زالت بقايا جدران منازلها وقصورها قائمة حتى الآن بعد أن كشف الباحثون الأثريون عنها . وقبل الحرب العالمية الأولى اكتشفت إحدى بعثات الحفر الالمانية فى منزل من منازل تلك المدينة بقايا مشغل أحد المثالين ، ووجدت فيه عددا كبيرا من القطع الجميلة التى أمدتنا بمعلومات جديدة مدهشة عن فن النحت فى ذلك العصر .

وتبع اخناتون عدد من الناس آمنوا بدينه واعتنقوه وقطعوا مقابرهم فى صخر الجبل القائم وراء المدينة ونقشوا جدران تلك القبور بمناظر جميلة ترينا مظاهر الحياة فى تلك المدينة التى نسيها الناس . فنقرأ على جدرانها الأناشيد (٢) التى كتبها اخناتون

---

١ ـ « أمون » هو النطق الصحيح لاسم هذا الاله عندما يكون وحده او عندما يأتى فى آخر اسم يكون الاله جزءا من تركيبه . أما اذا جاء فى أول اسم مركب مثل امنحوتب (كتبه اليونانيون امينوفيس) فان نطقه يتغير وينطق امن . وعلى ذلك فتكون كتابته « توت عنخ امن » خطأ ويجب أن تكتب « توت عنخ امون » .

٢ ـ انظر كتاب Breasted, The Dawn of Conscience (New York, 1933) p.p. 281-286

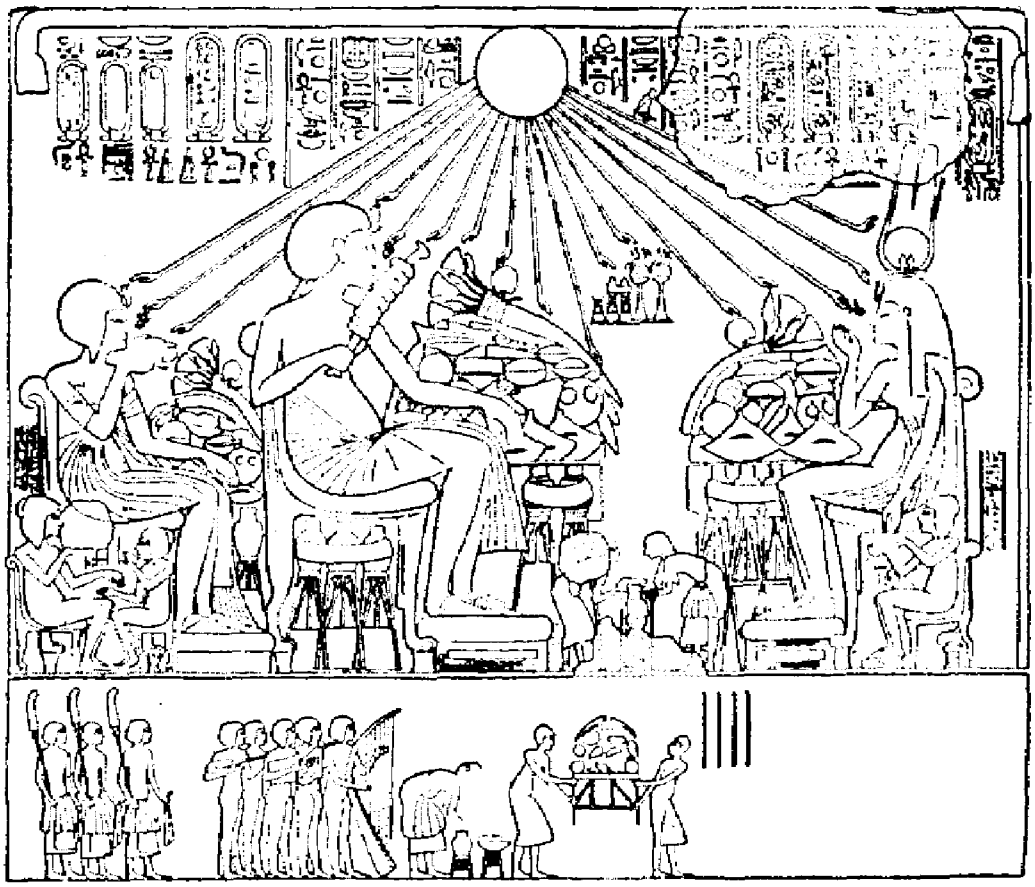

شكل : ٣٩ ـ الملك اخناتون يجلس الى مائدة الغذاء مع عائلته

حرمت التقاليد القديمة على الملك أن يصور وهو يقوم بأعمال الحياة اليومية بين أفراد عائلته • ولم تكن قبل عصر العمارنة نرى الا لمحات قليلة من الحياة الرسميه ولكن فى المقابر الصخريه فى العمارنة نرى وجهاء الدولة يتبارون فى رسم ملكهم فى حياته الخاصة على جدران مقابرهم،وذلك أمر كان حدوثه مستحيلا قبل عصره • فترى مثلا فى هذا الرسم الملك الشاب يجلس الىمائدة محملة بأنواع الطعام ، يمسك بيده اليمنى قطعه كبيرة من اللحم يأكل منها بشهية بينما الملكة الى جواره وقد أمسكت بيدها دجاجة كاملة • والى جانب الملكة جلست أميرتان صغيرتان تأكلان بأيديهما كما يفعل والدهما • وفي الناحية اليمنى من الصورة جلست أم الملك والى جانبها ابنة لها تشاركان العائلة فى طعام الغذاء • ونرى في وسط الصورة أربعة من الخدم يناولون الطعام بينما أخذت فرقة موسيقى وتربة تشنف أسماعهم بأنغامها أثناء الاكل •

نفسه فى تمجيد إله الشمس وهى ترينا بساطة وجمال إيمان هذا الملك الشاب بالاله الأوحد . فقد أوصلته عقيدته إلى الإيمان بأن الإله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط ، بل أنه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم بما فيهم المصريون والأجانب . وكان « أتون » أبا رحيما يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته، حتى الطيور التى تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته فترفع أجنحتها كما يرفع الانسان ذراعيه شكرا له كما يقول النشيد . ولقد تتبعنا تطور الإنسان وتقدمه فى خلال آلاف السنين ولكننا لم نر أحداً قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للإله الواحد الرحيم بكل الكائنات .

تدهور وسقوط الإمبراطورية المصرية

ولم يكن فى استطاعة عامة الشعب فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن يفهموا عقيدة مثل العقيدة التى نادى بها اخناتون، وامتلأت البلاد بكهنة المعابد الساخطين على الدين الجديد كما امتلأت أيضاً بجنود الجيش الذين أحسوا أنهم اصبحوا مهملين. وتآمر الكهنة سراً مع الجند ووجدوا منهم أذنا صاغية، وبدأت الفوضى والاضطرابات تأخذ سبيلها فى كل مكان، ولم تقتصر على مصر وحدها بل وصلت أيضاً إلى ممتلكات مصر فى اسيا فأخذت هذه الولايات تعد نفسها للقيام بالثورة.

وقد وقفنا على سير الأمور فى آسيا من « خطابات تل العمارنة » وهى مجموعة من الخطابات يبلغ عددها أكثر من ثلاثمائه خطاب كانت مودعة فى إحدى مكاتب حكومة اخناتون فى تل العمارنة حيث ظلت فى مكانها اكثر من ثلاثة آلاف عام حتى عثر عليها بعض الأهالى عندما كانوا يحملون السباخ من خرائب تل العمارنة ليخصبوا به حقولهم.

وهذه الخطابات محررة على قوالب صغيرة من الطين باللغة البابلية والخط المسمارى وأكثرها جاء إلى ملك مصر من ملوك غرب آسيا وهى فى مجموعها أقدم مراسلات دولية فى العالم، ونرى فيها كيف أن هؤلاء بدأوا يفكرون فى التحرر من حكم ملك مصر وكيف بدأت الإمبراطورية المصرية تتحطم وتتهاوى أركانها.

فالحيثيون نزلوا من آسيا الصغرى واستولوا على حدود فرعون الشمالية فى سوريا وغزا العبرانيون حدوده الجنوبية فى فلسطين آتين من الصحراء، وكانت هذه المتاعب والاضطرابات فى داخل مصر وفى خارجها على أسوأ ما يكون عندما مات اخناتون فى تل العمارنة. ومهما قيل عن هذا الملك بأنه كان حالما ويعيش على آراء مثالية

غير واقعية فليس هناك من ينكر عليه أنه كان أعظم نابغة ظهر فى العالم حتى ذلك الوقت .

لم ينجب أخناتون ولداً ذكراً ليخلفه على العرش فزوّج كبرى بناته من شاب من الحاشية الملكية وأشركه معه فى الملك ، ولكن هذا الشاب لم يعش طويلا ، وعندما أدركته المنية اختار أخناتون شاباً يافعاً آخر اسمه « توت عنخ أتون » أى (صورة أتون الحية) وزوجه من ابنته الثالثة لأن ابنته الثانية قد ماتت قبل ذلك ، وفعل أخناتون مع توت عنخ أتون ما فعله مع من سبقه فأشركه معه فى الملك ، فلما جاء اليوم الذى مات فيه أخناتون أصبح صهره الصغير وحده على العرش .

واستطاع كهنة أمون أن يجبروا الملك الحديث السن على ترك عاصمة أخناتون فى تل العمارنة ويعود إلى طيبة مدينة أمون ويغير كلمة أتون فى إسمه إلى أمون فأصبح اسمه توت عنخ أمون (أى صورة أمون الحية) .

وهكذا عادت مصر إلى عبادة أمون وغيره من الآلهة واختفت ديانة أتون الجميلة أقدم ما عرفه العالم عن التوحيد ووقف المخلصون لهذه الديانة فى وجه توت عنخ أمون ولكن هذا الشاب الصغير لم يلبث أن أصبح ألعوبة فى يد الرجال المجربين الذين كانوا حوله .

ومات بعد أن حكم فترة تزيد عن ست سنوات [1] ولم يكن عمره يزيد عن

---

١ ـ تميل الابحاث الحديثة الى القول بأن مدة حكم توت عنخ امون لم تقل عن ٨ سنوات وانه تولى العرش عندما كان فى العاشرة من عمره ، كما يقول أكثر الباحثين بأن كلا من سمنخكارع الذى تزوج كبرى بنات اخناتون ، وتوت عنخ اتون كانا أميرين من العائلة وربما كانا أخوين له من أبيه . ويقول المؤلف أن توت عنخ أمون مات مقتولا ولكن لايوجد فى الآثار المصرية أى دليل على ذلك ولم يصادف قبولا عند أحد من المشتغلين بالتاريخ (المعرب)

الثانية عشر إلا قليلا . وربما كان موته فى هذا السن المبكرة لم يكن طبيعياً وإنما قتله الكهنة ذوو المطامع والجنود الذين حوله . وبعد وفاته دفن توت عنخ أمون على مقربة من أسلافه العظماء أجداد زوجته . ولم يكن هناك أمير قوى فى العائلة المالكة يشق طريقه إلى العرش ، ولذا زالت أيام أحكام الأسرة الثامنة عشر حوالى عام ١٣٥٠ ق. م . بعد أن حكمت مائتى وثلاثين سنة ، والتى كانت أعظم البيوت المالكة فى تاريخ مصر ، وتركت وراءها ذكرى عظيمة لأن ملوكها كوّنوا أول امبراطورية كبيرة فى تاريخ الشرق القديم .

انتهى حكم توت عنخ أمون قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولو فرضنا جدلا أنه كانت لديه الحكمة وقوة الخلق التى تساعده على الصمود فى وجه أعدائه فإننا لا نتوقع من أى حاكم فى مثل ظروفه أن يتابع آراء أخناتون وينجح فى تطبيقها ، أى ينجح فى تغيير الديانة فى مصر وامبراطوريتها .

لم يكن أخناتون يرمى إلى تغيير الديانة تغييراً تاما فحسب بل أراد أيضاً أن يغير العقلية والعادات والفن . وأراد أن يقتلع كل شىء من جذوره كما يقتلع الانسان جذور النبات ، فقد كان يرمى من وراء حركته أن يخرج من قلوب المصريين عقائدهم التى ربوا عليها وأن يخرج من قلوبهم عاداتهم وعلى الأخص ما كان يتعلق منها بآمالهم الدينية وما كانوا يرجونه من حماية وسعادة فى مملكة أوزيريس بعد الموت .

ومن الطبيعى أن نتوقع أن يلجأ الكهنة إلى جميع أعمال الوحشية لتحطيم كل ما أخرجه صناع وفنانو أخناتون ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً كبيراً فلم يبق إلا النادر القليل الذى يكشف عن جمال الديانة وروعة الفن فى أثناء تلك الأيام الثائرة فى عهد أخناتون .

وكانت هذه الحقيقة من الأسباب التى زادت فى أهمية اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون لأنها حوت قطعاً فنية قام بصنعها فنانو عصر أخناتون وكانت هذه القطع الفنية مكدسة فى مقبرة صغيرة ذات حجرات أربع نحتت على عجل فى وادى الملوك فى الناحية الغربية من النيل . واستطاعت الملكة والمخلصون للبيت المالك أن يملئوا قبر الملك الشاب بجميع مايليق بفرعون مصر من أشياء فخمة فوضعوا فيها الأثاث الجميل الصنع ومصنوعات أخرى هى آيات فى الفن والعظمة .

وفى تلك الأيام الممتلئة بالاضطرابات السياسية التى مرت على البلاد بعد دفن توت عنخ أمون تمكن اللصوص من الوصول إلى مقبرته ولكنهم ضبطوا وهم متلبسون بجرمهم وحاول حراس الجبانة أن يعيدوا كل شىء إلى أصله وأن يصلحوا ما أفسده اللصوص ولكنهم لم يتقنوا ما أرادوا عمله .

وبعد مائتى سنة من وفاة توت عنخ أمون عندما كانت الامبراطورية فى أواخر أيامها أمر الملك رمسيس السادس بحفر مقبرته فى وادى الملوك فوق المكان الذى كانت فيه مقبرة ذلك الملك الشاب ورمى العمال بقطع الأحجار فوق مدخلها وبنوا فوق ذلك الرديم أكواخا بسيطة ليقيموا فيها ، وهذا هو السبب الذى جعل مقبرة توت عنخ أمون تظل مجهولة وبعيدة عن أيدى المخربين بعد سقوط الامبراطورية المصرية . وظلت على الحالة التى تركها عليه حراس الجبانة حتى عثر عليها رجال الأثرى هوارد كارتر (Howard Carter) فى خريف عام ١٩٢٢ فكانت المقبرة الملكية الوحيدة التى بقيت سليمة حتى العصر الحاضر .

وكنت ممن أسعدهم الحظ فزاروا الصالة الأولى من مقبرة توت عنخ أمون بعد اكتشافها ببضعة أيام فكانت من الأشياء التى لا يمكن للمرء أن ينساها ، فها هو الأثاث الفخم الذى كان يزين يوما من الأيام قصر أحد فراعنة مصر قبل ثلاثة آلاف ومائتين وخمسين عاما . وكان أجمل ما فى هذا الأثاث كرسى من كراسى

القصر . كان اسم توت عنخ أمون مكتوباً على أحد ذراعيه ، ولن أنس ما تسرب إلى نفسى من إحساس عندما قرأت على الذراع الآخر اسم هذا الملك الصغير عندما تولى العرش وهو اسم توت عنخ أتون . وبعبارة أخرى كان هذا الكرسى الدقيق الصنع مما أخرجته يد الفنانين الذين عاشوا فى أيام أخناتون وأنه كان يستعمل فى القصر الملكى فى العمارنة قبل أن يرى توت عنخ أمون نفسه مضطرا لتغيير اسمه . ومن هنا اتضح أن تلك المقبرة العظيمة كانت مملوءة بالكنوز الفنية التى تصور لنا الحياة والفن فى أيام ثورة أخناتون فى الوقت الذى حرر فيه العقل البشرى نفسه من جميع القيود القديمة واتجه ناحية جديدة فى الفن وفى الحياة .

وكانت النتائج السياسية لمثل هذا التحرر الثورى وخيمة العاقبة فقد زالت أيام العائلة المالكة القديمة وانتقل الملك إلى بيت جديد تولوا العرش واحدا بعد آخر وكان أهمهم الملك سيتى الأول (حوالى ١٣١٣ - ١٢٩٢ ق.م) وإبنه الملك رمسيس الثانى (حوالى ١٢٩٢ - ١٢٥٢ ق.م) .

وبذل كل من الأب والابن جهوداً جبارة متتالية ليعيدوا - ولو الى حد ما - الامبراطورية المصرية ، ولكنهما لم يستطيعا طرد الحيثيين من سوريا لأن هؤلاء الغزاة الأقوياء الذين جاءوا من آسيا الصغرى كانت لهم مواهب حربية ممتازة وكانوا قد عرفوا استعمال الحديد فصنعوا منه أسلحتهم ، بينما كانت الامبراطورية المصرية آخذة فى التضاؤل وكانت آخر الممالك العظيمة التى عاشت فى البرونزى[1].

وما زلنا نرى اليوم فى آثار طيبة مظاهر السقوط الذى كانت مصر على وشك التردى فيه . ففى مناظر المعارك الحربية التى خاضتها مصر فى أواخر أيام

---

١ - لانعرف على وجه التدقيق الوقت الذى بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز ولكننا نجد أن أقدم وقت بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز على نطاق واسع وخلفوا وراءهم أدوات برونزية كثيرة كان فى الاسرة الثانية عشر أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م.

الإمبراطورية نرى كثيراً من الأجانب الذين كانوا فى الجيش ، فى ذلك دليل على أن المصريين بدأوا يفقدون تحمسهم للجندية وأخذوا يستدعون الأجانب ليخوضوا حروبهم بدلا منهم . وكان من بين هؤلاء الأجانب شعوب من شمال البحر الأبيض الذين تحدثنا عنهم عند كلامنا على العصر الحجرى ، نرى أفراداً من هذه الشعوب على الآثار المصـــرية بعد أن تعلموا من شعوب الشرق صناعة المعادن ، نراهم الآن جنوداً مأجورين فى الجيش المصرى ومصورين على جدران معابدها يحملون فى أيديهم سيوفاً من البرونز عظيمة الحجم . وأخيراً جاء اليوم الذى اتحد فيه أقارب هؤلاء الجنود الأجانب الذين كانوا يعيشون فى موطنهم مع غيرهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط وغزوا مصر فى جموع كبيرة حتى سقطت الإمبراطورية المصرية المتداعية ، وكان ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

وفى مدى الأربعمائة سنة التى مرت على الإمبراطورية المصرية كان ملوك الفراعنة يدفنون فى طيبة فى البر الغربى ، فى واد بين الجبال الواقعة خلف تمثالى الملك أمنحوتب الثالث ، وهو الوادى الذى ذكرناه عند حديثنا على مقبرة توت عنخ أمون . فى جنبات هذا الوادى نحت المصريون ستين مقبرة كانت تسير كل منها على شكل دهليز فى جوف الجبل وبلغ طول بعضها بضعة مئات من الأقدام .

وفى نهاية تلك المقابر كانت توضع مومياء أولئك الفراعنة لتكون آمنة ولكن فى اليوم الذى بدأ فيه الضعف يتسرب إلى الدولة وآذنت الإمبراطورية بالسقوط بدأ اللصوص يعبثون بها فلم ينج منها إلا قبر ملك واحد وهو الملك توت عنخ أمون . وحاول الملوك الضعفاء الذين تولوا العرش بعد الأباطرة أن ينقذوا ما بقى من مومياء أسلافهم فأخذوا ينقلونها من مكان إلى مكان حتى أخفوها نهائياً فى مكان قطعوه فى الصخر فى الجبل الغربى . وبقيت مومياء الفراعنة آمنة فى

ذلك المكان ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة حتى عثر عليها فى عام ١٨٨١ ونقلتها الحكومة المصرية إلى متحف القاهرة .

وكانت تلك المومياء إلى ما قبل أعوام قليلة معروضة فى المتحف وكان فى استطاعة الزائر أن يقف إلى جانبها ويتأمل قسمات وجه أولئك الفراعنة الذين حكموا مصر وآسيا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ولكن الحكومة المصرية قررت وضع تلك المومياء فى قاعة خاصـــة بالمتحف ولا يسمح بزيارتها إلا لأغراض علمية .

ودب الضعف فى قوى الأمة بعد سقوط الأمبراطورية وفقدت حيويتها وقوة ابتكارها وأصبحت مغنماً للغزاة الأجانب يستغلون أهلها وينقلون القمح ليطعموا به شعوب البحر الأبيض المتوسط .

وجاء كثير من اليونان والرومان ليزوروا مصر ويتأملوا ما فيها من عجائب قام بها القدماء ، وترك كثير من هؤلاء الزوار أسماءهم منقوشة على الآثار كما يفعل بعض السائحين اليوم عندما يحضرون إلى مصر ليشاهدوا الآثار نفسها .

إن قصة التاريخ المصرى مسطرة على هذه الآثار ولكن بعد مضى دورة من دورات الزمن نسى الناس هذا التاريخ . وكان قد مضى أكثر من ألف سنة على موت آخر شخص كان فى مقدوره قراءة اللغة المصرية القديمة ، ومرت قرون طويلة كان زائرو الآثار يتطلعون إلى تلك الكتابات التى تغطى جدران المعابد والمقابر وغيرها فى جميع أرجاء وادى النيل فلا يفهم أحد شيئاً منها .

شمبوليون يحل رموز الكتابة المصرية

ظل العلماء متحيرين وقتاً طويلا من تلك الألغاز المسطرة على الآثار المصرية والتى لم يستطع أحد منهم قراءتها . ثم جاء الشاب الفرنسى جان فرانسوا شمبليون (Jean François Champollion) وصمم على التغلب على هـــذه المعضلة وبدأ ينجح فى ذلك بعد سنوات من الفشل المر . وكان عالم الطبيعيات الانجليزى توماس يونج (Dr. Thomas Young) قـــد اكتشف أسماء بطليموس وكليوپاترا مكتوبة بالهيروغليفية فاستطاع شمبوليون بالاستعانة بهذين الاسمين أن يحدد أصوات اثنى عشر من العلامات التى ثبت أنها علامات أبجدية ورأى شمبوليون أنه يستطيع قراءة بعض أسماء الملوك الآخرين وفى عام ١٨٢٢ أرسل خطابه المشهور إلى الأكاديمية الفرنسية معلناً اكتشافه (١) وموضحاً الخطوات التى اتبعها حتى وصل إليه .

ولم يكن فى استطاعة شمبوليون أن يستفيد من حجر رشيد قبل أن يصل إلى هذا الحد فى أبحاثه ، وبعبارة أخرى لم يكن حجر رشيد هو المفتاح الأول الذى استعمله شمبوليون فى حل رموز اللغة الهيروغليفية ، بل إن حجر رشيد فى الواقع هو الذى ساعده على زيادة محصوله من معرفة العلامات الهيروغليفية فى وقت قليل، كما ساعده أيضاً على معرفة معانى الكلمات وتراكيب الجمل . ومات شمبوليون

---

١ ــ وجد شمبوليون مسلة مكتوب على قاعدتها نص يونانى يذكر أنها مسلة أحد البطالمة وزوجتـــه المسماة كليوپاترا وكان على المسلة نفسها نقش باللغة الهيروغليفية ، فكان من رأيه أن هذا النص يجب أن يحتوى على اسمى بطليموس وكليوپاترا . وكان قد سبقه باحثون قالوا بأن تلك الخانات البيضاوية الشكل التى يكثر تكرارها على الآثار المصرية ليست الا اسماء الملوك . ورأى شمبوليون انه يوجد فى نقش المسلة اثنان من هذه الخانات البيضاوية وانه يجب أن يكون أحدهما اسم بطليموس والثانى اسم زوجته كليوپاترا . وتقدم شمبوليون خطوة أخرى فأخذ يقارن هذين الاسمين بكتابتهما باللغة اليونانية (بتو ليمايوس وكليوپاترا) وخرج من ابحاثه باكتشاف حل لرموز الكتابة المصرية .

فى عام ١٨٣٢ ولكنه استطاع قبل أن توافيه منيته أن يكتب أجرومية صغيرة وأن يعد قاموساً صغيراً للغة الهيروغليفية .

وما زال ينقصنا الكثير لنقول أننا عرفنا كل ما يتعلق باللغة الهيروغليفية وكتابتها ، ولكن المجهودات العظيمة التى توصل إليها شمبوليون وضعت الأساس الذى قام عليه العلم الجديد الذى نسميه الآن علم الدراسات المصرية القديمة (Egyptology) . وهذا العلم أعاد للعـــالم كتابة فصل من تاريخ البشرية فى مدى ثلاثة آلاف عام ومكن الآثار المصرية من أن تقص علينا تلك القصة المدهشة التى أوصلت الإنسان إلى الحضارة .

وكما توصل شمبوليون إلى حل رموز اللغة المصرية تمكن علماء آخرون بطرق مشابهة لطريقة شمبوليون من حل رموز الكتابات التى انتشرت فى طول وادى دجلة والفرات فى آسيا وأخذت آثار تلك البلاد تقص علينا هى الأخرى كيف خرج سكان غرب آسيا من حالتهم البدائية فعرفوا الصناعات وعرفوا أيضاً استعمال المعادن ووصلوا إلى استنباط طريقة للكتابة ثم ارتقوا إلى أن أصبحوا قوة عظيمة فى العالم القديم .

ولنترك الآن قصة مصر ونتقل فى الفصل التالى إلى قصة التاريخ المبكر فى الشرق الأدنى فى آسيا .